الفصل الرابع

دين الواقع والعمل

الاسلام هو كلمات الله الباقية لكافة الخلق ، وهو الهداية العامة الخالدة للبشر على اختلاف ألوانهم ، ورحمة الله الشاملة للعالمين ، وهو الحق الذى **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »**[1] . ولهذا ضمنه الله من التعاليم ما يليق بحال البشر أينما كانوا ، ومتى كانوا ، وكيف كانوا .. ولا غرو ، أن راعى الاسلام الواقع والشمول والوضوح فى كل ما دعا اليه الناس من عقائد وعبادات وأخلاق وتشريعات .

* * *

دين الواقعية

جاء الاسلام بعقيدة واقعية ، لأنها تصف حقائق قائمة فى الوجود لا أوهاما متخيلة فى العقول .. حقائق يقبلها العقل ، وتستريح اليها النفس ، وتستجيب لها الفطرة السليمة .. فالعقيدة الاسلامية تدعو الى الايمان بالله واحد دل على نفسه بآياته التكوينية فى الأنفس والآفاق ، وآياته التنزيلية مما أوحى به الى رسله .

وقد وصف القرآن هذا الاله الواحد بأوصاف ونعته **بأسماء** ، تقنع عقول الفلاسفة والمربين والعلماء كما ترضى عواطف العامة معا . فهى تجمع بين الجلال والجمال ، والقوة والرحمة ، وهى أيضا أسماء وصفات متسقة مع عمله سبحانه فى الكون وصلته بالخلق .. فهو الرحمن

---

(١) فصلت : ٤٢ .

الرحيم ، الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور ، العليم الحكيم ، البر الكريم ، العفو الغفور الحليم الشكور ، الرزاق الوهاب ، الرؤوف التواب ، ذو الجلال والاكرام .

وهذه الأسماء والصفات تدعو الى الايمان برسول بعثه الله ليختتم به النبوات ، ويتمم به مكارم الأخلاق . رسول هو بشر مثلنا ، لا يتميز عن الناس الا بالوحى ، قال تعالى : **«قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى ..»** (الكهف : ١١٠)

وهو ليس الهاً أو ملكاً ، انما هو انسان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، عاش ومات كما يعيش الناس ويموتون .. باع واشترى وصادق وعادى ، وسالم وحارب ، وتزوج وأنجب .. كان يرضى ويسخط ، ويفرح ويحزن ، ويحب ويكره . دل على صدقه سيرته الزكية ، ودعوته الهادية . وتأييد الله اياه ، ونصره على أعدائه ، وأثره فى أصحابه وفى العالم من حوله ، والكتاب المنزل عليه الذى تحدى به المعرضين فعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وأعلن أنه محفوظ من الله ، فلم يزل محفوظا الى اليوم ، لم يبدل فيه كلمة ولا حرف .

هذا الكتاب الالهى هو القرآن الكريم المدون فى المصاحف ، المتلو بالألسنة ، المحفوظ فى الصدر ، الذى يخاطب فى الناس عقولهم وقلوبهم معا ، ويستثير فيهم عوامل الرغبة والترهيب معا ، فهو بشير ونذير ، يقرن الوعد بالوعيد ، والترغيب بالترهيب ، فيشوق الى الجنة ويخوف من النار . فقد علم منزله تعالى أن الانسان لا يحركه الى الخير ولا يبعده عن الشر الا شوق يخفره ويدفعه ، أو خشية تحجزه وتمنعه ، وليس كالشوق الى مثوبة الله حافز ، ولا كالخوف من عذابه حاجز .

وفى الايمان بالجزاء الالهى العادل على الخير والشر فى الدنيا ، ثوابا وعقابا فى الأخرى ، ما يغذى الاحساس الفطرى الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذى أفلت من يد العدالة الدنيوية ، والمثوبة لمن فعل الخير ودعا اليه ولم يجز الا بالتنكر والاضطهاد .. وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، والأبرار والفجار ، والمصلحين والمفسدين ، قال تعالى :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون • وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »•
(الجاثية : ٢١ — ٢٢)

وفى الايمان بالجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب — حسى ومعنوى — مطابقة لواقع الانسان ، من حيث هو جسد وروح ، لكل منها مطالبه وحاجاته ، ومن حيث أن فى الناس من لا يكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم ، كما أن منهم من لا يكفيه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح • لهذا كان فى الجنة الطعام والشراب والحور العين ، ورضوان من الله أكبر •• وكان فى النار سلاسل وأغلال ، وطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولهم فوق ذلك من الخزى والهوان ما هو أشد وأنكى •

* * *

● **واقعية العبادات الاسلامية[٢] :**

لقد جاء الاسلام بعبادات واقعية ، لأنه عرف ظمأ الكائن الروحى فى الانسان الى الاتصال بالله ، ففرض عليه من العبادات ما يروى ظمأه ، ويشبع نهمه ، ويملأ فراغ نفسه •• ولكنه راعى الطاقة المحدودة للانسان ، فلم يكلفه ما فوق طاقته أو يعنته أو يحرجه ، قال تعالى :
« •• وما جعل عليكم فى الدين من حرج •• » (الحج : ٧٨)

١ — فلقد راعى الاسلام واقع الحياة وظروفها الأسرية والاقتصادية والاجتماعية ، وما تفرضه على الانسان من طلب الرزق ، والسعى فى مناكب الأرض الذلول • فلم يطلب من المسلم الانقطاع للعبادة ، بل لم يسمح له بهذا الانقطاع لو أراد ، وانما كلف المسلم عبادات محدودة ، تصله بربه ، ولا تقطعه عن مجتمعه ، يعمر بها آخرته ، ولا تخرب من ورائها دنياه • قال تعالى :

---

(٢) يوسف القرضاوى — **الخصائص العامة للاسلام** • ص ١٤٨ — ١٤٩ .

● « ٠٠ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ٠٠ » ٠
(الملك : ١٥)

● « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ٠٠ » ٠ (الجمعة : ١٠)

● « وجعلنا النهار معاشا ٠٠ » ٠ (النبأ : ١١)

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ٠٠ » ٠
(التوبة : ١٠٥)

ومن الحديث النبوى الكريم :

— « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » ٠
(رواه البخارى)

— « لا يقبل ايمان بلا عمل ولا عمل بلا ايمان » ٠
(رواه الطبرانى)

— « اذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم » ٠
(رواه الطبرانى)

— « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » ٠ (رواه أحمد)

— « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » ٠
(رواه أحمد)

٢ — وعرف الاسلام طبيعة الملل فى الانسان ، فنوعها ولونها ٠٠ بين عبادات بدنية كالصلاة والصيام ، وأخرى مالية كالزكاة والصدقات ، وثالثة جامعة بينهما كالعمرة والحج ٠ وجعل بعضها يوميا كالصلاة ، وبعضها سنويا أو موسميا كالصيام والزكاة ، وبعضها مرة فى العمر كالحج ، ثم فتح الباب لمن أراد مزيدا من الخير والتقرب من الله ، فشرع التطوع بنوافل العبادات ، قال تعالى :

« ٠٠ فمن تطوع خيرا فهو خير له ٠٠ » ٠ (البقرة : ١٨٤)

٣ — وراعى الاسلام الظروف الطارئة للانسان كالسفر والمرض

ونحوهما ، فشرع الرخص والتخفيفات التى يحبها الله .. وذلك مثل صلاة المريض قاعدا أو مضطجعا على جنب حسب استطاعته ، وتيمم الجريح اذا كان استعمال المـاء للوضوء يضره ، وافطار المريض فى رمضان مع وجوب القضـاء ، وفطر الحامل والمرضع اذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، وفطر الشيخ الكبير والمرأة العجوز مع الفدية : اطعام مسكين عن كل يوم . ومثل ذلك قصر الصلاة الرباعية للمسافر ، والجمع بين صلاتى الظهر والعصر أو بين المغرب والعشـاء تقديما أو تأخيرا ، وشرعية الفطر للمسافر فى الصيام .. وهـذه الرخص كلها رعاية لواقع الناس وتقديرا لظروفهم المتغيرة وتيسـيرا من الله عليهم ، كما قال فى آية الصوم :

« .. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .. » .

(البقرة : ١٨٥)

* * *

● **واقعية الأخلاق الاسـلامية :**

لقد جاء الاسلام بأخلاق واقعية ، راعت الطاقة المتوسطة المقدورة لجماهير الناس .. فاعترفت بالضعف البشرى ، وبالدوافع الانسانية ، وبالحاجات والرغبات البشرية المـادية والمعنوية ..

١ — فلم يوجب الاسلام على من يريد الدخول فيه أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته كما طالبت بعض الأديان الأخرى . بل راعى الاسـلام حاجة الفرد والمجتمع الى المـال ، فاعتبره قواما للحياة . قال تعـالى :

● **« المـال والبنون زينة الحياة الدنيا .. »** . (الكهف : ٤٦)

● **« وتحبون المـال حبا جما »** . (الفجر : ٢٠)

● **« .. وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا »** .

(الاسراء : ٦)

● **« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة .. »** . (البقرة : ٢٦١)

● « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .
(البقرة : ٢٧٤)

وهكذا نجد أن الاسلام يشجع على تنمية الأموال وانفاقها في سبيل الخير . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— « ما نفعنى مال كمال أبى بكر » . (رواه أحمد)

— « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .
(رواه أحمد والطبرانى)

٢ — ولم يرد فى القرآن ولا السنة ما جاء فى الانجيل من قول المسيح عليه السلام : « أحبوا أعدائكم .. باركوا لاعنيكم .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر .. ومن سرق قميصك فأعطه ازارك » .. فقد يجوز هذا فى مرحلة معينة محدودة ، ولعلاج ظرف خاص يتطلب التسامح ، ولكنه لا يصلح توجيها عاما لكل الناس ، فى كل عصر ، وفى كل بيئة ، وفى كل حال . فان مطالبة الانسان العادى بمحبة عدوه ومباركة لاعنه ، قد يكون شيئا فوق ما يحتمله . ولذلك اكتفى الاسلام بمطالبة المسلم بالعدل مع عدوه . قال تعالى :

« .. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .. » . (المائدة : ٨)

ولقد تجلت واقعية الاسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها دون طغيان أو ظلم ، فأقر بذلك مرتبة العدل ، ودرء العدوان ، ولكنه — فى ذات الوقت — حث على العفو والصبر والمغفرة للمسىء ، على أن يكون ذلك مكرمة يرغب فيها ، لا فريضة يلزم بها . وهذا واضح فى قوله تعالى :

● **« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » .** (الشورى : ٤٠)

● **« وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .** (النحل : ١٢٦)

٣ — ومن ولقعية الأخلاق الاسلامية أنها أقرت التفاوت الفطرى والعملى بين الناس .. فليس كل الناس فى درجة واحدة من حيث قوة الايمان . والالتزام بما أمر الله به من أوامر ، والانتهاء عما نهى عنه من نواه ، والتقيد بالمبادىء والقيم والمثل العليـا .. فهناك مرتبة الاسلام ، ومرتبة الايمان ، ومرتبة الاحسان .. وهناك الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسـابق بالخيرات ، كما أرشد لذلك القرآن الكريم . « فالظالم لنفسه » هـو المقصر ، التارك لبعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات . « والمقتصد » هـو المقتصر على فعل الواجبات ، وعلى ترك المحرمات ، وان فعل المكروهات . « والسابق بالخيرات » هو الذى يزيد على فعل الواجبات ، أداء السنن والمحببات ، وعلى ترك المحرمات وترك الشبهات والمكروهات ، بل ربما يتنازل عن بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره . والى هؤلاء يشير قوله تعـالى :

« ثم أورثنا الكتـاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسـه ومنهم مقتصد ومنهم سـابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير » .

(فاطر : ٣٢)

٤ — ومما يستكمل هـذا المعنى ، أن الأخلاق الاسلامية لم تفترض فى أهل التقوى أن يكونوا براء من كل عيب ، معصومين من كل خطأ أو ذنب ، كأنما هم الملائكة أولوا أجنحة .. بل قدرت أن الانسان مكون من جسد وروح ، فاذا كانت الروح تعلو به تارة ، فان الجسد يهبط به طورا . ومزية المتقين انما هى فى التوبة والرجوع الى الله سبحانه ، كما وصفهم فى القرآن الكريم بقوله :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسـهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

(آل عمران : ١٣٣ — ١٣٥)

٥ — ومن واقعيـــة الأخلاق الاســـلامية ، أنها راعت الظـــروف الاستثنائية كالحرب ، فأباحت من أجلها مالا يباح فى ظروف السلم •• كهدم المبانى ، أو تحريق الأشجار ونحوها ، ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الاسلامى وعدده وعتاده وخططه ، فان الحرب خدعة •

* * *

● واقعية التربية الاســـلامية :

التربية الاسلامية كذلك تربية واقعية تتعامل مع الانسان كما هو •• لحما ودما ، وفكرا وشعورا ، وانفعالا ووجدانا ، وروحا وتخليقا •

١ — لمـــا رأى أحد الصحابة — واسمه حنظلة — أنه يكون مـــع أسرته وأهله فى حال تغاير تلك التى يكون عليها فى حضرة الرســـول ﷺ ، من حيث الصفاء والشفافية والشـــعور بخشية الله تعـــالى • فرأى فى هـــذا التباين لونا من النفاق • فخرج يعدو فى الطريق وهو يقول عن نفسه : نافق حنظلة ، حتى انتهى الى الرسول ﷺ ، وشرح له ما يحس به من تباين حاله عنده عن حاله فى البيت • فأجابه الرسول بقوله : « انكم لو بقيتم على الحال التى تكونون عليها عندى لصافحتكم الملائكة فى الطرقات ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » (٣) • ومن هنا جاء المثل العامى الذى يقول : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك » •

وعلى هـــذا النهج من الحياة الواقعية المتوازنة يربى الاسلام المسلم ، فلا يدعه يغرق فى اللهو الى أذنيه فلا يبقى شىء لربه ، كما لا يدعه يغلو فى التعبد فلا يبقى له شىء لقلبه •

٢ — ومع أن الاسلام لا يقر بأن أحدا يولد ملوثا بالخطيئة ، نراه يعترف بأثر البيئة وخطرها ، وبخاصة البيئة الأسرية ، فهى التى تشـــكل عقيدة الطفـــل واتجاهه الدينى الأول خـــلال مرحلة التطبيع الاجتماعى •

---

(٣) رواه مسلم •

وفى الحديث النبوى الشريف :

« كل مولود يولد على الفطـــرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » • (رواه البخارى)

ولهذا حمل الاسلام الآباء تبعة توجيه أولادهم وحسن تربيتهم ، قال تعـــالى :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجـــارة •• » • (التحريم : ٦)

وقال رسول الله ﷺ عليه وسلم :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته •• والرجل فى أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته » • (متفق عليه)

٣ — ويهتم الاســـلام بسن الطفولة ، لأنها أكثر قابلية للتعليم والتأثر والمحاكاة ، وهنا يأمر الآباء والمربين بتدريب الأطفـــال على الطاعات وأداء الفرائض وفعل الخيرات ، متى بلغوا سن التمييز ، وقد حددها الحديث النبوى الكريم بالسابعة ، كما أمر بأخذهم بالحزم والشدة اذا قاربوا المراهقة ، وذلك اذا أتموا العاشرة • وفى هـــذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« مروا الصبى بالصلاة لسبع ، واضربوه على تركها لعشر » •

(رواه الترمذى)

والضرب هنا ليس مقصودا لذاته ، وانما المراد به اشعار الولد بأهمية ما يؤمر به ، وجدية الأب فى أمره به ، وحرصه على تنفيذ الأمر وعدم التهاون فيه • والضرب المطلوب أن يؤلم ويوجع ، ولكنه لا يشوه ولا يجرح ، ولا يؤذى ايذاء شديدا • والاسلام يقرر هـــذا للضرورة أو للحاجة •

* * *

● **واقعية الشريعة الاســـلامية :**

لقد جاء الاسلام بشريعة واقعية ، لم تغفل الواقع فى كل ما أحلت وحرمت ، ولم تهمل هـــذا الواقع فى كل ما وضعت من أنظمة وقوانين

للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللانسانية جمعاء • ومن مظاهر هـذه الواقعية ما يأتى :

١ — أن الشريعة الاسلامية لم تحرم شـيئا يحتاج اليه الانسان فى واقع حياته ، كما لم تبح له شـيئا يضره فى الواقع •• ومن ثم أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات ، معلنا اباحتها للبشر جميعا بشرط القصد والاعتدال وعدم الاسراف فى استخدامها • قال تعالى :

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عنـد كل مسـجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيامة •• » • (الأعراف : ٣١ — ٣٢)

٢ — ومن واقعية الشريعة أنها قدرت الضرورات — التى تعرض للانسان وتضغط عليه — حق قدرها ، فرخصت فى تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة • وقرر فقهـاء الشريعة أن الضرورات تبيح المحظورات ، استنادا الى ما جاء فى القرآن الكريم عند ذكر الأطعمة المحرمة ، كقوله تعالى :

« انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » •
(البقرة : ١٧٣)

٣ — ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الانسان أمام كثير من المحرمات ، فسدت الباب اليها كلية ، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها ، كما فى الخمر ، كما أنها اعتبرت ما يوصـل الى الحرام حراما ، منعا للذريعة ، واقرارا بواقع الكثير من البشر الذين لا يملكون أنفسهم اذا فتح أمامهم الباب الى طريق الحرام • ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية اغلاقا لباب قد تهب منه رياح الشر • ومثل ذلك النظر بشهوة الى الجنس الآخر لأن العين رسول القلب •

٤ — ومن واقعية الشريعة الاسـلامية أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الانسان ، فلم تهملها أو تستخف بها •• فشرعت اشباع

الدافع الجنسى بطريقة نظيفة ، تضمن بقاء الانســـان وصيانة كرامته وارتقائه عن الحيوان ، وذلك بتشريع « نظام الزواج » • وقد أشار القرآن الى ذلك بعد أن ذكر ما حرم الله من النساء وما أحله وراء ذلك بشرطه ، ثم قال :

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم ســـنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيـــم • والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما • يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا » • (النساء : ٢٦ ــ ٢٨)

والمقصود بضعف الانسان فى هـــذا المقام هو ضعفه أمام الغريزة الجنســـية •

٥ ــ وانطلاقا من هـــذه النظرة الواقعية للحياة والانسان ، كانت اباحة تعدد الزوجات كما شرعها الاسلام •• فما دام فى الزوجات من يعتريها المرض ويطول ، ومن ترغب عن الرجل ولا تقبل عليه أو تستجيب له الا بصعوبة ، وما دام معظم الرجال لا يستطيعون التحكم فى دوافعهم الجنســـية ، فلم لا نتيح لهم طريق الزواج الحلال بدلا من البحث عن الحرام فى الخفاء ؟

واذا كان من النساء من ابتليت بالعقم ، وفى الرجال من يكون قوى الرغبة فى الانجاب ، فلماذا لا نتيح له تحقيق رغبته فى الانجاب بالزواج من امرأة أخرى ولود ، بدلا من تحطيم قلب الأولى بالطلاق أو قهر رغبة الرجل فى الانجاب بتحريم الزواج الثانى عليه ؟

وقد نظمت الشريعة الاسلامية تعدد الزوجات بقوله تعـــالى :

« •• فانكحوا ما طاب لكم من النســـاء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا » •
(النساء : ٣)

٦ ــ ومن واقعية الشريعة الاسلامية اباحتها للطلاق عند تعذر الوفاق بين الزوجين ، هـــذا مع تعظيم الاسلام لشأن العلاقة الزوجية واعتبار هـــذا الرباط « ميثاقاً غليظا » • واعتبار الأصل فى الطلاق

هو الحظر والتحريم ، كما تدل على ذلك الدلائل من القرآن والسنة • قال تعالى فى شأن النساء الناشزات :

« •• واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا •• » •

(النساء : ٣٤)

وجاء فى الحديث :

« أبغض الحلال الى الله الطلاق » • (رواه أبو داوود)

ومع هـذا ، أثبت الواقع أن من الزواج ما لا يصحبه التوفيق ، وقد أمر الاسلام الأزواج بالصبر والتريث وعدم الاستجابة للشعور بالكراهية ان أحسوا بها :

« •• وعاشروهن بالمعـروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » • (النساء : ١٩)

كما أمر الاسلام الأزواج أن يعالجوا المرأة الناشز بكل الوسائل حتى تعود الى الموافقة والطـاعة ، وأمر المجتمع أن يتدخل للتحكيم والاصلاح عن طريق « مجلس عائلى » ، قال تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما •• » • (النساء : ٣٥)

ومع هـذا قد تستحكم النفرة ، ويتفاقم النزاع ، وتخفق كل وسائل الاصلاح والتحكيم والتوفيق ، فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته •

٧ — ومن واقعية الشريعة فى المجال الاجتماعى والاقتصادى أنها اعترفت بالدافع الفطرى الواقعى الأصيل فى نفس الانسان ، ألا وهو واقع « حب التملك » • فأقرت مبدأ الملكية الفردية وما يترتب عليه من حق تصرف الفرد فيما يمتلك ، وحق الارث له • ولكنها لم تنس واقعا آخر ، هو مصلحة المجتمع وحقوقه ، وحاجات الفئـات الضعيفة من أبنائه • ولهذا قيدت هـذه الملكية الفردية بقيود شتى منها : الطرق المشروعة لاكتساب المـال ، وفى تنميته ، وفى الاستمتاع به ، وفى

التصرف فيه ، وأوجبت فيه حقوقا لله وللناس أولها الزكاة ، ثم مساعدة ذوى القربى والفقراء والمساكين وأبناء السبيل .

ان دافع التملك من الدوافع النفسية التى يتعلمها الانسان أثناء التنشئة الاجتماعية .. فالانسان يتعلم من الثقافة التى ينشأ فيها ، ومن خبراته الشخصية ، حب امتلاك المال والعقارات والممتلكات المختلفة التى تشعره بالأمن من الفقر ، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة فى المجتمع .

وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من المواضع الى دافع التملك :

● **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »** . (آل عمران : ١٤)

● **« وتحبون المال حبا جما »** . (الفجر : ٢٠)

● **« المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. »** (الكهف : ٤٦)

● **« اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد .. »** (الحديد : ٢٠)

وقال تعالى فى شأن الصدقات والزكاة :

● **« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. »** .
(التوبة : ١٠٣)

● **« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم »** . (التوبة : ٦٠)

● **« .. لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم .. »** .
(المائدة : ١٢)

● **« .. والمقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما »** . (النساء : ١٦٢)

● « **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة ..** » . (النور : ٣٧)

٨ — ومن دلائل الواقعية فى الشريعة الاسلامية جملة أمور عامة نلمحها فى أصولها وقواعدها الأساسية واتجاهاتها ، ومن هذه المبادىء :

(ا) **التيسير ورفع الحرج** : التيسير مبنى على رعاية ضعف الانسان ، وكثرة أعبائه ، وتعدد مشاغله ، وضغط الحياة عليه . والخالق — سبحانه — رؤوف رحيم ، لا يريد بعباده عنتا ولا رهقا ، انما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال . ولقد جاء الأسلام عاما لكل الناس ، فى كل زمان ومكان ، لذلك لا بد أن يتجه الى التيسير والتخفيف ، ليتسع لكل الناس ، وان اختلف بهم المكان والزمان والحال .. فالقرآن ميسر الذكر ، والعقيدة ميسرة الفهم ، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق ، ليس فيها تكليف يتجاوز طاقة المكلفين . وقد أعلن القرآن الكريم هذه الحقيقة فى أكثر من آية ، فقال :

● « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها ..** » . (البقرة : ٢٨٦)

● « .. **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ..** » .
(البقرة : ١٨٥)

● « .. **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** » . (المائدة : ٦)

(ب) **مراعاة سنة التدرج** : ومن تيسير الاسلام على البشر أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم ، ايجابا أو تحريما .. فحين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت الى الصورة الأخيرة . فالصيام فرض أولا على التخيير ، فمن شاء صام ومن شاء أفطر وفدى ، أى أطعم مسكينا عن كل يوم يفطره ، قال تعالى :

« .. **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ، ان كنتم تعلمون** » .
(البقرة : ١٨٤)

ثم أصبح الصيام فرضا لازما لكل صحيح مقيم لا عذر له :

« .. فمن شهد منكم الشهر فليصمه .. » . (البقرة : ١٨٥)

والمحرمات كذلك ، لم يأت تحريمها دفعة واحدة ، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس وتغلغلها فى الحياة الفردية والاجتماعية . فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم ، انما الحكمة اعدادهم نفسيا وذهنيا لتقبلها ، وأخذهم بقانون التدرج فى تحريمها ، حتى اذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعا الى تنفيذه .. وخير مثال نسوقه لذلك هو الطريقة التى اتبعها القرآن فى تحريم الخمر .. فقد عمد القرآن فى أول الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، دون أن يقوم بتحريمها تحريما تاما ، ثم تدرج بهم الى التحريم التام . فكانت أول آية نزلت فى الخمر تشير الى أن مضارها أكثر من منافعها ، وحث على الامتناع عن شربها . قال تعالى :

« يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما .. » . (البقرة : ٢١٩)

ثم تدرج القرآن بعد ذلك الى درجة أشد حزما ، فحرم على المسلمين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ، وفى هذا تحريم لشرب الخمر فى معظم أوقات اليوم . قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. » . (النساء : ٤٣)

فالامتناع عن الخمر خمس أوقات فى اليوم انما كان بمثابة تدريب للمسلمين على الاقلاع عن شرب الخمر ، وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسيا للانتقال الى المرحلة التالية وهى الامتناع نهائيا عن شرب الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التى حرمت الخمر تحريما تاما :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » . (المائدة : ٩٠ — ٩١)

* * *

دين الشـــمول

« الشمول » من الخصائص التى تميز بها الاسلام عن كل ما عرفه النـــاس من الأديان والمذاهب والفلســـفات ، بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد .. انه شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب كيان الانسان كله [٤] ..

أولا ـــ رســـالة الزمن كله :

انها رسالة لكل الأزمنة والأجيال ، وليست رسالة موقوتة بعصر معين ينتهى أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن فى رسالات الأنبياء السابقين على محمد ﷺ ، فقد كان كل نبى يبعث لمرحلة زمنية محدودة ، حتـــى اذا ما انقضت بعث الله نبيا آخر .. أما محمـــد ﷺ فهو خاتـــم النبيين . ورسالته هى رسالة الخلود التى قدر الله بقاءها الى أن تقوم الساعة . فليس بعد الاسلام شريعة ، ولا بعد القرآن كتاب ، ولا بعد محمد نبى . ولم يسبق لنبى قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رســـالته هى الخاتمة وأن لا نبى بعده . انها ـــ فى جوهرها وأصولها ـــ رسالة كل نبى أرسل ، وكل كتاب أنزل .. فالأنبياء جميعا جاءوا بالاسلام ، ونادوا بالتوحيد ، وهـــذا ما يقرره القرآن فى وضوح وتأكيد ..

● **« وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون »** . (الأنبياء : ٢٥)

● **« .. ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت .. »** . (النحل : ٣٦)

وكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون ، ودعوا الى الاسلام :

قال نوح : **« .. وأمرت أن أكون من المسلمين »** .
(يونس : ٧٢)

---

(٤) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** ، ص ٩٥ .

وابراهيم واسماعيل قالا : « **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ..** » . (البقرة : ١٢٨)

ووصى ابراهيم بنيه ويعقوب : « .. **يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون** » . (البقرة : ١٣٢)

ودعا يوسف ربه فقال : « .. **توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** » . (يوسف : ١٠١)

وموسى قال : « .. **يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين** » . (يونس : ٨٤)

وقال الحواريون لعيسى : « .. **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** » . (آل عمران : ٥٢)

من هذا يتضح أن رسالة الاسلام — فى جوهرها — رسالة كل نبى جاء من عند الله منذ عهد نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام .. انها رسالة الزمن ، كل الزمن .

* * *

ثانيا — رسالة العالم كله :

واذا كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر أو جيل — فهى كذلك غير محدودة بمكان ، ولا بأمة ، ولا بشعب ، ولا بطبقة .. انها الرسالة الشاملة التى تخاطب كل الأمم ، وكل الأجناس ، وكل الشعوب ، وكل الطبقات .. انها ليست رسالة لشعب خاص ، يزعم أنه وحده شعب الله المختار ، وأن الناس جميعا يجب أن يخضعوا له .. وليست رسالة لاقليم معين يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض .. وليست رسالة لطبقة معينة مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة مصالحها أو السير فى ركابها واتباع أهوائها . انها رسالة الناس جميعا ، وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها . انها هداية رب الناس لكل الناس ، ورحمة الله لكل عباده . وهذا ما أوضحه القرآن الكريم بقوله :

● « **قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ..** » (الأعراف : ١٥٨)

● « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . (الأنبياء : ١٠٧)

● « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .
(الفرقان : ١)

● « ان هو الا ذكر للعالمين » . (سورة ص : ٨٧)

* * *

ثالثا ــ رسالة الانسان كله :

انها رسالة الانسان من حيث هو انسان متكامل . فهى ليست رسالة لعقل الانسان دون روحه ، ولا لروحه دون جسمه ، ولا لأفكاره دون عواطفه ، أو غير ذلك . انها رسالة الانسان كله .. روحه وعقله ، وجسمه ، وضميره ، وارادته ، ومشاعره .. فالانسان ــ كما خلقه الله ــ ليس مجزءاً أو مشطوراً ، فهو « كل » متكامل ، و «كيان » واحد ، لا تنفصل فيه روح عن مادة، ولا عقل عن عاطفة ، فهو وحدة متكاملة لا تتجزأ من الجسم والروح والعقل والنفس والضمير . ولهذا يجب أن تكون غايته واحدة ، ووجهته واحدة ، وطريقه واحدا ، وهذا ما صنعه الاسلام .. فقد جعل الغاية الله سبحانه ، والوجهة الآخرة .

ان الاسلام هو رسالة الانسان كله ، وهو رسالته كذلك فى كل مراحل حياته ووجوده ، وهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الاسلامى . هذه الرسالة هداية الله ، تصحب الانسان أنى اتجه أو سار فى أطوار حياته .. فهى تصحبه طفلا ، ويافعا وشابا ، وكهلا وشيخا ، وترسم له فى كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذى يحبه الله ويرضاه . فلا عجب أن تجد فى الاسلام أحكاما وتعالم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده ، وتجد أحكاما تتعلق بارضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه . قال تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ، فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، وان

أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جنـاح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير »

(البقرة : ٢٣٣)

وبعد ذلك نجد أحكاما تتعلق بالانسان صبيا وشابا وكهلا وشيخا ، فلا توجد مرحلة من حياته الا وللاسلام فيها توجيه وتشريع • وأكثر من ذلك أنها تعنى بالانسان قبل أن يولد ، وبالانسان بعد أن يموت • • من وجوب تغسيله وتكفينه والصلاة عليه ، ودفنه ، وشرعية العزاء فيه ، والدعاء له ، وتنفيذ وصاياه ، وقضاء ديونه •

« ان الاسلام هو العقيدة المثلى للانسان منفردا أو مجتمعا ، وعاملا لروحه أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه ، أو ناظرا الى آخرته ، ومعطيا حق نفسه ، أو معطيا حق حاكمه وحكومته • فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة . ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب اسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى •• ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها ، مجتمعة لديه فى جميع حالاته ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع •• ان شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية ، وظواهرها الاجتماعية ، هو المزية الخاصة فى العقيدة الاسلامية التى توحى الى الانسان أنه « كل » شامل ، فيستريح من « تصادم » العقائد التى تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق »(٥) •

* * *

● **شمول الأخلاق فى الاسلام :**

يبرز الشمول كذلك فى ميدان الأخلاق والفضائل •• فالأخلاق الاسلامية ليست هى التى تعرف عند بعض الناس « بالأخلاق الدينية »

---

(٥) عباس محمود العقاد ، **القرآن والانسان** ، « موسوعة العقاد الاسلامية ـ المجلد الرابع » . (بيروت : دار الكتاب العربى ، ١٩٧١) ، ص ٥٥٦ .

التى تتمثل فى أداء شعائر التعبد ، واجتناب شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ونحو ذلك لا غير . ان الأخلاق الاسلامية تسع الحياة بكل جوانبها وكافة مجالاتها . ان الأخلاق فى الاسلام لم تدع جانبا من جوانب الحياة الانسانية روحية أو جسدية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو عاطفية ، فردية أو اجتماعية ، الا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع [٦] .

١ — ان من أخلاق الاسلام ما يتعلق بالفرد من كافة نواحيه :

(ا) جسما له ضروراته وحاجاته ، بمثل قوله تعالى :

« .. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا .. » (الأعراف : ٣١)

وقول الرسول ﷺ : « ان لبدنك عليك حقا » . (رواه الشيخان)

(ب) وعقلا له مواهبه وآفاقه ، يقول تعالى :

● **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض .. »**

(يونس : ١٠١)

● **« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .. »** (سبأ : ٤٦)

(جـ) ونفسا لها مشاعرها ودوافعها ، قال تعالى :

● **« قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها . »**

(الشمس : ٩ — ١٠)

* * *

٢ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالأسرة :

(ا) كالعلاقة بين الزوجين :

« .. وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » . (النساء : ١٩)

---

(٦) يوسف القرضاوى ، **الخصائص العامة للاسلام** . ص ١٠٦ — ١٠٧

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد :

● « ووصينا الانسان بوالديه احسانا ٠٠ »
(الأحقاف : ١٥)

● « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطئا كبيرا » ٠ (الاسراء : ٣١)

(جـ) وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام :

● « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ٠٠ »
(النحل : ٩٠)

● « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ٠٠ »
(الاسراء : ٢٦)

* * *

٣ ــ ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالمجتمع :

(ا) فى آدابه ومجالاته ، مثل :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » ٠ (النور : ٢٧)

(ب) وفى اقتصاده ومعاملاته ، مثل :

● **« ويل للمطففين ٠ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ٠ واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » ٠** (المطففين : ١ ــ ٣)

● **« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ٠٠ »**
(البقرة : ٢٨٢)

(جـ) وفى سياسته وحكمه :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ٠٠ » ٠ (النساء : ٥٨)

* * *

٤ — ومن أخلاق الاسلام ما يتعلق بالكون الكبير :

(ا) من حيث أنه مجال التأمل والتفكر والاستدلال بما فيه من ابداع واتقان ، على وجود مبدعه وقدرته ، وعلى علمه وحكمته ، قال تعالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك •• » •

(آل عمران : ١٩٠ — ١٩١)

(ب) ومن حيث أنه مجال للانتفاع بما أودع الله فيه من خيرات وما بث فيه من قوى مسخرة لمنفعة الانسان ، وما أسبغ فيه من نعم تستوجب الشكر لواهبها والمنعم بها ، كما قال تعالى :

● **« ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة •• » •** (لقمان : ٢٠)

● **« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله•• »**

« البقرة : ١٧٣)

* * *

٥ — وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذى منه كل النعم وله كل الحمد :

« الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين • اياك نعبد واياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم » •

(الفاتحة : ٢ — ٦)

فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله ، وأن ترجى رحمته الواسعة ، وأن يخشى عقابه العادل يوم الحساب ، وهو وحده الذى يستحق أن يعبد ويستعان وأن تطلب منه الهداية الى الصراط المستقيم •

وبهذا ، يتجلى شمول الأخلاق الاسلامية ، من حيث موضوعها ومحتواها • ولقد كانت نظرة الاسلام جامعة محيطة مستوعبة ، لأنها ليست نظرية بشرية ، بل وحى من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا •

* * *

ديـــن العمـــل والانتـــــاج

ان الايمان الصادق ليس مجرد ادراك ذهنى أو تصديق وجدانى غير متبوع بأثر عملى فى الحياة ، بل انه اعتقاد وعمل واخلاص • ومهما اختلف علماء الكلام والجدل فى العقائد حول مفهوم الايمان وصلة العمل به : أهو جزء من مفهومه أم شرط له أم ثمرة من ثمراته ، فانهم متفقون على أن العمل جزء لا يتجزأ من الايمان الكامل • وقد روى فى الأثر ما يصور لنا حقيقة الايمان :

« ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » • (رواه الديلمى)

وقد ذكر القرآن الكريم الايمان مقرونا بالعمل فى أكثر من سبعين آية من آياته • ولم يكتف بمجرد العمل ، ولكنه طلب عمل « الصالحات » وهى كلمة تشمل كل ما تصلح به الدنيا والدين ، وما يصلح به الفـــرد والمجتمع ، وما تصلح به الحياة الروحية والمادية معا[٧] •

ولا يذهب الظن أو الوهم بأحد ، فيحسب أن ارتباط السعادة والفوز بالعمل الصالح مقصور على الآخرة وحدها •• فان قوانين الله فى الجزاء واحدة ، ورب الدنيا والآخرة واحد ، فالله تعالى يقول :

- « •• انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » • (الكهف : ٣٠)
- « •• فنعم أجر العاملين » • (الزمر : ٧٤)
- «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» • (الزلزلة : ٧ — ٨)

* * *

(٧) يوسف القرضاوى ، **الايمان والحياة** . ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .

● **نظرة الاسلام الى العمل(٨) :**

يقول القرآن الكريم :

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ٠ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ٠ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » ٠ (يس : ٣٣ ــ ٣٥)

تطالب هذه الآيات الثلاث من الانسان أن يشكر الله سبحانه بالايمان به ، على نعمته عليه ، وهى نعمه مزدوجة ٠٠ أولا ، أن أعده للعمل المثمر الناجح فى حياته ، بحيث يعتمد على صلاحيته للعمل والانتاج ، بالاضافة الى ارادة الله فى معاونته ٠ ثانيا ، أن ارادة الله سبحانه هيأت له من البيئة التى يعيش فى كنفها ما يساعده على الحياة ، ان هو ضم الى هذه الارادة مباشرة العمل الذى أعد له منذ نشأته ٠

والعمل اليدوى فى الزراعة مثلا : **« وما عملته أيديهم »** ٠٠ ركن أساسى فى انتاج المحاصيل الزراعية ، وما يتبعها من تنمية للثروة الحيوانية ٠ وارادة الله سبحانه قبل ذلك ، أو مع ذلك ، هى ركن هام فى انجاز ما تأتى به الأرض من ثمرات للانسان ٠ ان جعل العمل اليدوى أساسا فى الانتاج لا يسمح للمؤمن أن يلجأ الى « التواكل » ، الذى هو طريق سلبى فى الحياة ٠ فهو طريق انتظار الرزق وتوقعه دون بذل أى مجهود مع اهمال العمل أو تركه ٠ والاسلام يدعو الى التوكل على الله ، ولكنه لا يعترف بالتواكل والتراخى أو يشجعه ، فيقول المولى عز وجل :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور » ٠ (الملك : ١٥)

والتوكل على الله هو استنفاذ الانسان لكل امكاناته فى التفكير بطريقة سليمة ، والترجيح بين عدة طرق يختار أفضلها لتنفيذ ما صمم

---

(٨) سيد عبد الحميد مرسى ، **الشخصية المنتجة** ، « سلسلة دراسات نفسية اسلامية (٣) » . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٥) ص ٢٨ ــ ٣٥ .

عليه من عمل . وهنا يبدأ السير فى العمل ، متوكلا على الله ، ومعتمدا عليه سبحانه فى مساعدته . فالتوكل على الله والاعتماد عليه لا يقع فى فراغ ، وانما يأتى بعد خطوات من نشاط الانسان فى تفكيره واختياره وعزمه وتصميمه .

وهكذا نجد ثلاثة عناصر لجعل حياة الانسان ايجابية ومثمرة :
العنصر الأول : مباشرة الطاقة على العمل والانجاز والانتاج التى أمده الله بها .

العنصر الثانى : التوكل على الله ، والالتجاء اليه ، وطلب مساعدته ، عند تنفيذ العمل .

العنصر الثالث : الايمان بالله ، لدفع الضرر والاستكبار والطغيان فيما ينتجه فى مجال العمل [٩] .

وعمل الانسان هو وظيفة عقله وبدنه ، فان لم يباشر الانسان العمل فانه يحول دون أداء وظيفته فى الحياة .. فعقل الانسان لا بد أن يفكر ، حيث ان الانسان يتميز عن الحيوان بما وهبه الله تعالى من عقل ، ومن قدرة على التفكير تمكنه من النظر فى الأمور والبحث فى الأشياء والظواهر والأحداث ، واستخلاص الكليات من الجزئيات ، واستنباط النتائج من المقدمات . ان قدرة الانسان على التفكير هى التى جعلته أهلا للتكليف بالعبادات ، وتحمل مسئولية الاختيار والارادة ، وهذا هو ما جعله أهلا لخلافة الله تعالى فى الأرض[١٠] . قال تعالى :

● « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .. » .
(العنكبوت : ٢٠)

● « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض .. »
(يونس : ١٠١)

---

(٩) محمد البهى ، **القرآن الكريم .. يقول** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٩) ، ص ٧٩ — ٨٠ .

(١٠) محمد عثمان نجاتى ، **القرآن وعلم النفس** . ص ١٢٤ .

● « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ٠٠ » ٠ (الأعراف : ١٨٥)

● « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ٠ (الحج : ٤٦)

● « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ٠
(البقرة : ١٦٤)

ففى هذه الآيات وأمثالها دعوة صريحة الى النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمى فى جميع المخلوقات ، وفى جميع الظواهر الكونية ٠ ولم يحث القرآن الانسان على التفكير والبحث العلمى فى الظواهر الطبيعية فقط ، وانما حثه أيضا على التفكير فى نفسه ، فى أسرار تكوينه البيولوجى والنفسى ، وهو بذلك يدعوه الى ارتياد ميادين العلوم البيولوجية والفسيولوجية والطبية والنفسية ٠ قال تعالى :

● « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى ٠٠ » ٠ (الروم : ٨)

● « فلينظر الانسان مم خلق ٠ خلق من ماء دافق ٠ يخرج من بين الصلب والترائب » ٠ (الطارق : ٥ — ٧)

● « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ٠٠ » (فصلت : ٥٣)

وقد بين القرآن الكريم أهمية التفكير فى حياة الانسان ، ورفع من قيمة الانسان الذى يستخدم عقله وتفكيره ، وحط من شأن من لا يستخدم عقله وتفكيره بأن جعله أدنى درجة من الحيوان ٠ قال تعالى :

● « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ٠
(الأنفال : ٢٢)

● **« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضـــل سبيلا »** ٠ (الفرقان : ٤٤)

فعقل الانسان اذن لا بد أن يفكر ، ومن غير المعقول أن لا يتخذ تفكيره خطا سليما فى الحياة ، بدلا من أن يغلبه الهوى ويجره الـــى التفكير فيما يضره أو يوقع الضرر بغيره ٠ ولا يتغلب الهوى على تفكير الانسان الا اذا استسلم الى عدم القيام بالعمل الجدى فى الحياة ٠٠ ان بدن الانسان لا بد له أن يتحرك فى اتجاه مثمر ، بدلا من أن تدور حركته فى دائرة ارضاء شهوات النفس وتلبية لذتها ومتعتها ٠ واذا كان العمل وظيفة الانسان ، أى وظيفة جسمه وعقله ، فانه لا يسبب اجهادا له ما دام يتلاءم مع امكاناته الجسمية والعقلية والشخصية ، بل على النقيض من ذلك ، فكثيرا ما يحب الانسان متعته فى العمـــل المشبع ٠

فالقائم بالعمل العقلى يسأم الحياة ويمل القعود دون تفكير ، وصاحب العمل البدنى يغلب عليه الضيق ويتملكه الاحساس بالضجر وعدم الرضا ان هو لم يتحرك فى سبيل العمل وينشط لانجازه ٠ ان العمل فى الحياة هو السبيل لتحصيل الرزق والتمكن من العيش ، ولكنـــه هو هدف فى ذات الوقت ٠٠ فاذا كان لدى الانسان من الثروة ما يمكنه من أن يعيش دون ما حاجة الى الدأب والسعى لكسب القوت ومواجهـــة مطالب الحياة اليومية ، فانه على الرغم من ذلك لا يقدر قيمته كانســـان ، ولا يحقق ذاته أو يفهم وظيفته فى الحياة على حقيقتها ، اذا توقف عن العمل بحجة عدم حاجته الى مال ، لأنه لا يحقق عندئذ هدف وجوده ٠

فللانسان هدف فى حياته الانسانية ، ليس هو مجرد العيش اذات العيش أو لمجرد المحافظة على الكيان الفردى ، بل ان هدف الانسان فى الحياة هو الكدح والكفاح ٠٠ الكفاح فى سبيل رسالة الحق ، والمقاومة ضد ما يضعف الحق ويقوى الباطل ضده ٠ فرسالة الحق هى رســـالة الخير ، ورسالة التعاون المثمر فى الحياة ، ورسالة المحبة بين الناس ٠ فأداء هذه الرسالة هو تحقيق هدف حياة الانسان ، وليس مجرد تحصيل المتع الدنيوية لذاتها ٠ قال تعالى : **« انا جعلنا ما على الأرض زينـــة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا »** ٠ (الكهف : ٧)

فالقرآن الكريم اذن لا يرى منع الحياة التى نعيشها هدفا وغاية فى ذاتها ، وانما يراها وسيلة لهدف ، ويرى أن من خلالها يكون قرب الانسان أو بعده من تحقيق الهدف الانسانى وهو « حسن العمل » • والعمل الحسن هو ما كان خيره للناس جميعا ، أو ما حال دون وقوع أضرار بالناس • والفقير فى نظر القرآن هو الذى عجز عن العمل أو لم يجد السبيل اليه ، قال تعالى :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا •• » • (البقرة : ٢٧٣)

لقد أودع الله فى الكون موارد للثروة وأودع فى الانسان طاقة للعمل ، وجاء الاسلام ففتح أعين الناس على الكون الفسيح • قال تعالى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود • ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك •• » •

(فاطر : ٢٧ — ٢٨)

كما فتح الاسلام أعين الانسان على طاقاته الفكرية والنفسية والحيوية كلها ، قال تعالى : **« وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »** •

(الذاريات : ٢١)

فالأساس الأول الذى يرسيه الاسلام فى تنظيم مجتمعه هو أن يعمل الانسان ليحصل على القوت ، وفى هذا المجال تتابعت أقوال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام •• « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » ، « ان الله يحب العبد المحترف » ، « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » • وتتابعت وصايا الرسول الكريم بالعدل فى وفاء حق العامل •• « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » ، ومن الثلاثة الذين يخاصمهم رسول الانسانية يوم القيامة « رجل

استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره » • وفى ذات الوقت لم يغفل الرسول الكريم أن يلزم العامل بأداء واجبه •• « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » • ولا عجب أن رأينا مجتمع الاسلام الأول — مجتمع المدينة المنورة — يعرض فيه الأنصارى ساكن المدينة على أخيه المسلم المهاجر من مكة الذى ترك ماله فيها أن يشاطره ماله . فيأبى المهاجر الا العمل ويقول : « دلنى على السوق »[١١] •

رأينا فيما تقدم أن الاسلام أمر المسلمين بالعمل وبالسعى فى أرجاء الأرض ليبتغوا من فضل الله ، حتى جعل العمل مقابلا للحياة ، ولا قيمة لحياة المرء فى نظر الاسلام بغير عمل • ان الاسلام يقرر بأن العمل عبادة وفريضة من فرائضه ، فيقول رسول الله ﷺ : « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » • (رواه الطبرانى)

ومن مفهوم الحديث الشريف أن كل عمل هو شريف ما دام فيما أحل الله لعباده من طلب الرزق ، بعيدا عما نهى الله عنه من المحرمات •

ومما مكن لشرف العمل وقيمته واتقانه فى المجتمع الاسلامى أن القرآن الكريم أوضح لنا أن حملة الرسالات الدينية من الأنبياء والمرسلين على مر التاريخ هم فى ذات الوقت رواد فى مجالات العمل المختلفة •• فهذا « نوح » عليه السلام كان رسولا نبيا ، وكان رائدا من رواد الصناعة ، اذ أوحى الله اليه بصنع السفينة التى أنجته هو ومن معه من الطوفان الذى أغرق قومه الكافرين ، فان بدء صناعة السفن على يديه •

و « ابراهيم » أبو الأنبياء ، كان رسولا نبيا ، وكان فى الوقت ذاته يحسن صناعة البناء ، وقد رفع القواعد من البيت الحرام بمكة المكرمة هو وابنه « اسماعيل » •

---

(١١) محمد البهى ، **الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر : مشكلات الأسرة والتكافل** « ط ٣ » . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

و « يوسف » الصديق كان رسولا نبيا حاملا لعهد الله مع آبائه ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وكان فى الوقت نفسه ذا عقل اقتصادى راجح يحسن تدبير أمور الناس المعاشية • فأشار على فرعون مصر فى عهده بأن يزرع سبع سنين دأبا ، ويخزن فائض الزرع وغلته فى هـذه السنوات السبع استعدادا لسنوات الأزمة المقبلة ، التى استشفها بتأويل الرؤيا التى أريها فرعون فى منامه وقصت عليه فى سجنه • ولما استخلصه فرعون لنفسه بعد تأويله للرؤيا ، طلب يوسف أن يوليه منصب القائم على خزائن الأرض فى دولته ليخدم الناس فى مصر بتدبير أمـور معاشهم وأقواتهم ، فكانت رسالته مزدوجة للحياة الروحية والدنيوية •

و « موسى » رشحته قوته البدنية وأمانته ليعمل للنبى شعيب فى رعاية أمواله ويعينه عشر سنوات فى خدمته على أن يزوجه احدى ابنتيه بعد أن قالت : « •• **يا أبت استأجره ، أن خير من استأجرت القوى الأمـين** » • (القصص : ٢٦)

و « داوود » كان نبيا ورائدا من رواد صـناعة الحديد ، وكان يأكل من عمل يده فى عمل الدروع والصناعات الحديدية • قال تعالى :

« **ولقد آتينا داوود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد • أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ، واعملوا صالحا ، انى بما تعملون بصير** » • (سبأ : ١٠ — ١١)

« وسليمان بن داوود » كان رسولا نبيا ، وكان من المهتمين بصناعة المحاريب والقدور والأوانى ، كما ذكر القرآن الكريم :

« •• **وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير • يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** » • (سبأ : ١٢ — ١٣)

و « محمد » ﷺ — خاتم الأنبياء والمرسلين شرف الشباب بالعمل

فى شبابه برعى الأغنام والاتجار فى مال خديجة أم المؤمنين ، وكان يمشى فى الأسواق كغيره من الناس ويدافع عن الحرمات [١٢] .

* * *

● **العمل فى القرآن والسنة :**

يحث القرآن الكريم على العمل الشريف وأن يكون مصدر الرزق الحلال . قال تعالى :

● **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .**
(التوبة : ١٠٥)

● **« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .** (الكهف : ٣٠)

● **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .**
(النحل : ٩٧)

● **« .. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**
(يس : ٣٥)

● **« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .**
(الأحقاف : ١٩)

● **« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » .**
(يس : ٣٣ — ٣٥)

● **« .. ان الله بما تعملون بصير » .** (البقرة : ١١٠)

---

(١٢) عبد السميع المصرى — **مقومات العمل فى الاسلام** . (القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٨٢) ، ص ٢٩ — ٣٠ .

ومن الحديث النبوى الشريف :

— « لا يقبل ايمان بلا عمل ولا عمل بلا ايمان » .

(رواه الطبرانى)

— « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

(رواه البخارى)

— عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا عليه السلام نجارا » . (رواه مسلم)

— « طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة » .

(رواه الطبرانى)

— « ان الله يحب العبد المحترف ، ومن كد على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل » . (رواه أحمد)

— « ان الله تعالى يحب أن يرى عبده تعباً فى طلب الحلال » .

(رواه الديلمى)

— « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » .

(رواه أحمد)

— « اذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم » .

(رواه الطبرانى)

— « باكروا فى طلب الرزق والحوائج فان الغدو بركة ونجاح » .

(رواه الطبرانى)

— « أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده » .

(رواه أحمد)

— « أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل كسب مالا من غير حله فدخل به النار » . (رواه البخارى)

— « ان أشرف الكسب كسب الرجل من يده » .

(رواه أحمد)

— « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

(رواه البيهقى)

* * *